الأدب المعاصر، السنة السابعة، خريف ۱۳۹۴، العدد السابع والعشرون: صص۵۱- ۷۲

دراسة الشعر الحسینی سیاسیاً(شعر حسن السنید نموذجاً)

صغری فلاحتی *
مرتضی زارع برمی **
حسین آشوری ***

تاریخ الوصول: ۹۴/۱/۱۹
تاریخ القبول: ۹۴/۳/۱۸

الملخص

إنّ هذه الدراسة هی محاولة لإلقاء الضوء علی الشعر الحسینی السیاسی فی الأدب العراقی المعاصر من خلال شعر الشاعر العراقی *حسن السنید*، علی اعتبار أنّه واحد من أهم المتمردین السیاسیین فی زمن *صدام حسین*. فاعتمدنا علی المنهج الاستقرائی التحلیلی فی قراءة النصوص الشعریة السیاسیة الثوریة التی تنبعث من مضامین الفکر الحسینی لکی یتلاءم مع طبیعة البحث، وقد وصلنا إلی هذه النتائج؛ أن عاشوراء تمثل خطراً محدقا لسلطة الاستبداد السیاسی علی مر التاریخ والشاعر اختار جانب المعارضة السیاسیة للکشف عن انحرافات النظام السیاسی وإصلاح الأمور، هذا أمر یعتقد الشاعر أنه من حقه ومن حق کل مواطن فی ظل الدولة المستبدة.

الکلمات الدلیلیة: عاشوراء، الشعر الحسینی، العراق، حسن السنید.

* أستاذة مساعدة فی قسم اللغة العربیة وآدابها بجامعة الخوارزمی. azmoude@gmail.com
** طالب الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها بجامعة الخوارزمی. tmu.zare@yahoo.com
*** طالب الدکتوراه فی فرع اللغة العربیة وآدابها بجامعة الخوارزمی. hosseinashoori266@yahoo.com
الکاتب المسؤول: مرتضی زارع برمی

المقدمة

إن نهضة سيدالشهداء تتمحور حول ثلاثة أسس رئيسية هى ١) الإنسان؛ ٢) اللاعنف؛ و٣) مناهضة الظلم. وبالنسبة إلى المحور الأول؛ فإن كربلاء كما إنعكست فى شعر الرفض المعاصر أرادت أن تعيد الإنسان إلى سابق عهده كما خلقه الله تعالى حراً، فى قوله تعالى:

﴿يضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم﴾(الأعراف/ ١٥٧)

أما بالنسبة إلى المحور الثانى والثالث، فإن كل المصلحين عبر التاريخ ينطلقون بحركتهم التغييرية بشكل سلمى لا عنفى، وسلاحهم الوحيد فى خوض هذه المعركة هو الكلمة أى المنطق والحوار والدليل والبرهان فى قوله تعالى:

﴿تعالوا إلى كلمة سواء﴾(آل عمران/ ۶۴)

إلا أن الحاكم الظالم هو الذى يحول هذه المعركة المنطقية عادة إلى حرب مسلحة يستخدم فيها كل أنواع السلاح الفتاك ضد الخصم، المصلح هنا، لأن الظالم عادة لا يمتلك من سلاح الحكمة والمنطق والحوار شيئاً وإلا لما ظلم ولما طغى فإنما يطغى الحاكم عندما يعييه المنطق؛ فيتوسل بالسلاح الفتاك لمحاربة كل من يسعى للتغيير ويطالبه بالإصلاح وهو حال الطغاة المعاصرون من أمثال *صدام حسين* و*بن على* و*مبارك* وأخيراً وليس آخراً *القذافى*) الذين ماتوا أو سيموتون بذل وهوان(إبن خلدون، ٢٠٠٧: ٢٠٩).

هذا من جانب ومن جانب آخر فى الوقت الحاضر وبعد غلبة الطابع السياسى على قراءات عاشوراء، فالنتيجة تكون الإسلام الحماسى *وحسين* الشهادة وشعر الشهادة للمكافحة مع الأنظمة غير الديمقراطية، وليس حسين مصيبة وعزاء بحتاً بل حسين الدم وليس حسين الدمع. ويؤيد ذلک المتداول من عناوين ومفردات هذه الحقبة والتحوّل الذى طرأ على مجراها بالتزام أدب الحماسة، من قبيل التحرر والحرية والثورة والنهضة والخروج والنضال والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإصلاح والحكومة والسياسة والعدالة(إسفنديارى، ٢٠٠٧: ١٧). كما استلهم *حسن السنيد* فى أشعاره المضامين التراثية المختلفة فاتكأ على الموروث التاريخى تارة والموروث الدينى الشعبى بعض الأحيان، فوظف رموزاً مفردة ثائرة ومتمردة مستمدة من التاريخ العربى الإسلامى ولاسيما نهضة عاشوراء وشخصية *الإمام الحسين*(ع) التى جاءت من خلال وعيه للماضى،

وفهمه للحاضر واستشرافه للمستقبل واستحضرها فی أکثر من موضع وجعلها مصدراً یستمد منه صور الثبات علی الحق، ومقارعة الباطل والظلم وصور الکرامة والحریة والرجولة والبطولة والإیثار والمواساة وکل قیم السماء ومناقب الأخلاق التی ضحی من أجلها الحسین والثلة المؤمنة من أهل بیته والصفوة الطاهرة من أصحابه المیامین:

«دعوناک، دعوناک حسینا
أیَّها النحرُ الذی حطَّم سیف المجزرَة
أیُّها القبر الذی یرفض صمتَ المقبرة»

(السنید، ۱۹۹۱: ۶۹-۷۰)

هذه الظاهرة الشعریة إنما وجدت نتیجة إحساس الشاعر بضرورة مسایرة الحیاة المعاصرة، وتتفاعل مع التطورات السیاسیة والثقافیة والإجتماعیة التی کانت تشهدها العراق(ناصر، ۱۹۸۵: ۱۵۲). منها ظاهرة الطغیان والقمع؛ التی لم تعد مجرد حالات شاذة تصدر عن هذا النظام وتظهر فی حالة الضرورة ثم تختفی بعد زوال أسبابها، ولم تعد الممارسات القمعیة مجرد إجراء وقائی لحمایة النظام، وإنما صار القمع والاضطهاد سمة بارزة لکل الحکومات المتعاقبة عثمانیة وأجنبیة وعربیة، غیر مرهون بطبیعة محددة لأنظمة ملکیة أو جمهوریة أو رجعیة أو تقدمیة أو رأسمالیة أو إشتراکیة، فجمیعها مارس ما وصلت إلیه عبقریته من فنون سحق الشعوب واضطهادها، کما أنه غیر مرهون بمرحلة زمنیة معینة أو بفترة انقلابیة أو انتقالیة معینة(أبو نضال، د. ت: ۷ والمسمری، ۱۹۸۸: ۴۱۰)، ولکن کل تلک الممارسات لم تستطع إسکات صوت الثائرین والرافضین والمتمردین لأننا نجزم لو کانت عاشوراء حاضرة فی واقع الأمة، لأقامت النظام السیاسی الدیمقراطی القائم علی أساس إرادة الأمة وحسن خیارها وحریة أبناءها علی قاعدة.

کما أن عاشوراء فرصة ذهبیة لإثارة روح التحدی فی نفوس الأمة ومن أشد مقاطع التاریخ إلتصاقا بواقع الأمة فی کل آن، ومن أکثرها تأثیراً علیه. لأن قصة الصراع الأزلی بین الحق والباطل، وبین الظالم والمظلوم، کانت ولا تزال باقیة فلذلک خلدت عاشوراء مهما تجدد الزمن(مطهری، ۱۳۸۱، ج۱: ۱۸-۲۰).

السؤال الرئیسی: ما هو أهم مضامین الشعر الحسینی وأهدافه سیاسیاً فی عصرنا الحاضر؟

سابقية البحث

يعد المنهج السياسى فى دراسة النهضة الحسينية من المناهج الحديثة، حيث يوظف أدوات المفاهيم السياسية فى تحليل النهضة الحسينية بعددها السياسى فى زمنها والأزمان المتعاقبة. والدروس والعبر والخطط المنهجية التى أبدعتها هذه النهضة فى هذا المضمار، ويعد كتاب المفكر الإسلامى *الشيخ محمد مهدى شمس الدين* «ثورة الحسين» من أهم الكتب التى درست النهضة من هذه الزاوية كما لا يخلو العالم الإسلامى *الشيخ مرتضى مطهرى* «الملحمة الحسينية» من دراسة النهضة الحسينية بهذا المنظار.

ومن المعلوم، إن دراسة ظاهرة عاشوراء فى الأدب عامة والشعر خاصة، لها مؤلفات، وبما أن لهذا الموضوع من السعة والشمول فهذا يقتضى منا أن نفرد له صفحات كثيرة إلا أن فضاء المقال لا يتيح لنا هذا. أما بالنسبة لشاعرنا حسن *السنيد*، ففضاء البحث لايزال محتفظاً بعذريته، لأنّنا نعتقد أن طموحات أىّ باحث أكاديمى لا يمكنها أن تتحقق بالنسبة المرجوة عند أىّ باحث. لهذا يبقى مجال البحث فيه مفتوحاً ينتظر مقاربة وقراءة أخرى.

إعتمد الباحث على جمع المعلومات ذات الصلة بظاهرة نهضة عاشوراء وتأثيراته العامّة فى الشعر، من خلال المتابعة الشخصية لكل ما يبثّ وينشر عبر مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة، الرسمية وغير الرسمية، ومواقع التواصل الإجتماعى كتويتر والفيس بوک واليوتيوب وغيرها.

الشعر الحسينى

ثورة *الحسين* مادة خصبة استطاع الأدباء أن يستلهموها فى فنّهم استلهاماً واسعاً أمدّ الأدب الشيعى والأدب الرفض بثروة ضخمة من القصائد(أمين، ١٩٣٦، ج٣: ٣٠٤). ولا غبار على هذا القول إذا ما دققنا فى شكل ومضمون القصيدة الحسينية، فهى أضافت إلى الشعر العربى عامة والوجدانى خاصة رؤية جديدة فى الشكل والمضمون، فقد أخذت القصيدة الحسينية مهمة اصلاحية نابعة من وجدان الشعر، تمثلت برصد الوظيفة الكبرى لثورة *الإمام الحسين*(ع)، وهى الاستنفار لقيم الله سبحانه بنصرة الحق ودفع الباطل مهما كان الثمن، إذ إلتفت إليها الشعراء ففقهوها وغدوا مقتنعين به فجعلوها فى صف التقى والصلاح

ومعانی الخیر للبشریة، فیما یأخذ أعداؤه فی قصائدهم جانبا مظلما لا تتحرک فیه إلا عیون الشیطان، ولا تدب فیه إلا حرکة الخبث والجهل وسحب الباطل، وهذه السمة ولّدت بذرةً وجدانیة ظلت حیة منذ الفاجعة إلی یومنا هذا.

وکذلک قصائد عاشوراء نمت روحیاً بتجدید الزمان، لأن *الحسین* یرفض الحیاة فی الذل وأظهرت شموخ أهل البیت وسجایاهم الکریمة ومظلومیتهم، فأثّر ذلک کله فی عواطف المجتمع الإسلامی والإنسانی تأثیراً عمیقاً وظلت معالم الأسی مقرونة بالثورة وهی تفوح من کلام الشعراء فی کل عصر لتحرق الضمیر الإنسانی، وتهز الوجدان أینما سمع ذلک الکلام. وأصبحت هذه القصائد محرکة للأمل والخلاص فی کل عصر یحتدم به الظلم، وینشر الطاغوت عباءة الخوف علی رؤوس الناس، فحققت القصیدة الحسینیة وظیفتها تجاه وحدة الصراع مع الحکم الجائر، وأصبحت خیر ناقد لمساوئ حکام العصر، أو الظواهر غیر السامیة فی المجتمع(عنوز، ۲۰۱۳: ۲۰-۲۳).

انتماء الشاعر إلی إنشاء علاقة بین الواقع الألیم والثورة الحسینیة

فإذا جئنا إلی العصر الحاضر وجدنا أن المثقف العربی لم یتخلص من ثقل ذلک المیراث القدیم المشوب بالخوف والحذر(الدکتاتوریة والإستعمار)، علی الرغم من الشعارات الکثیرة المرفوعة باسم المنظمات والهیئات الدولیة کمنظمة حقوق الإنسان ومنظمة العفو الدولیة ومجلس الأمن والأمم المتحدة وغیرها، والمتشدقة باسم حریة الشعوب وحریة الرأی والدیمقراطیة والعدالة وکثیر من المصطلاحات التی ظلت مجرد حبر علی الورق، کما ینشد شاعرنا فی قصیدته *أشیاء* یفهمها الثوار؛ ذلک أن الاستبداد ظل هو هو وإن لبس أثوابا جدیدة وظهر بمظهر متمدن:

«الشِّمرُ ها قد سجّل اعتذاره
عن مقتل الحسین،
فی الأمم المتحدة!
والقدسُ ها قد هَوَّمت
علی غِناء الأمم المتحدة!
وتنقلُ المصادرُ المقرَّبة:

أنَّ رجالَ الأمنِ فى الميناء
قد أغلقوا الدروب
وألقوا القبضَ على أُغنيةٍ
ثائرةٍ تحاولُ الهروب
وحوكمت بالعدل!! فى لاهاى
فَأُعدمت!
وسُلّمت جثتُها للأُمم المتحدة!
وتنقل المصادر المقرَّبة:
أن الصليبَ الأحمرَ الدوليَّ
ما يزال
يبذل ما فى وسعه ليوقف القتال،
فى غابة بين فَراشتين!
ثم يعود حاملاً نَقّالةَ الجرحى
لأرض الطَّف
وجرحُها فى قلبها ما جَف
فيدفن القتلى،
وينسى جُثَّةَ الحسين!»

(السنيد، ١٩٨٦: ١١١-١١٢)

هذه القصيدة حققت تلاحما بين ذات الشاعر المتمرد والنص من وجهة والمقارنة بين واقعه والقيم الحسينية النبيلة التى ثار من أجلها *//الحسين* من أخرى، فرصدت القصيدة الواقع مُعَرِّيَة إياه بسبب الظلم والباطل والشر بأنواعه وإتجاهاته فى كل زمان ومكان. بعبارة إستخدام الشخصيات التراثية ونفس التراث تؤدى بطرق متمايزة المعانى المحرمة حسب رغبة قائله(الصغير، ١٩٨١: ٣٧) فى الأنظمة البوليسية، وبذلک كانت قصيدته إنعكاسا موضحا للواقع المعيش، هو أن الدكتاتورية البعثية والحكم الفردى فى ظل المجامع الدولية يلغيان الحركة السياسية فى العراق(الجنابى، ٢٠١١: ٥٦)؛ فتصبح الشعر الحسينى حينئذ صوتا ومرآة للمسكوت عنه وللمحتجين فى ذلک الواقع.

السلطة تری عاشوراء تعارضا ضد السلطة

رضاخان فی إیران و*یاسین الهاشمی* فی العراق و*آتاتورک* فی ترکیا کانوا یحملون مهمة واحدة وغایة مشترکة ألا وهی القضاء علی الدین وتقویض الشعائر الحسینیة المقدسة، لأن عاشوراء تمثل خطراً محدقاً بسلطة الإستبداد السیاسی، ولکن رغم خشونتهم المفرطة والأعمال الإجرامیة والأسالیب القمعیة التی قاموا بها، باؤوا بالفشل الذریع(الحسینی الشیرازی، ۲۰۱۲: ۱۹).

وینقلنا حسن *السنید* فی قصائده منها «بیروت بغداد»، إلی النظام الصدامی، الذی هو سعی بکل جهده، من أجل القضاء علی کل ما یمتد إلی *الحسین*(ع) بصلة اسمه، رسمه، قبره، نهجه، کلمة تقال بحقه أو عنه، شعائره لهذا یبدأ بإغلاق أبواب الحرم الحسینی وتکمیم الأفواه، وقمع الزوار والمعارضة، وأعدم محبیه واغتال عشاقه وسجن زواره:

«ونحن هنا فی العراق
یُعذّبنا ضابطُ الأمنِ!
یخلعُ أظفار أقدامنا.. والیدین..
لأنا عشِقنا الحسین..
لقد أغلقوا الیومَ بوابة الصحنِ
فی کربلاء
وقد أعدموا ثُلَّةً.. أبریاء
وما زال فی الطفِّ یمتدّ لونُ الدماء»

(السنید، ۱۹۸۶: ۶۸-۷۲)

وبکلمة، لقد عرف النظام الشمولی البائد جیداً أن الظلم وعاشوراء نقیضان لا یجتمعان. ویبدو واضحا من نص القصیدة «أشیاء عن مکة»، أن *الحسین* الذی خلقه شاعرنا، أراد إثبات حقیقة لا تقبل الشک، هی مسؤولیة تجاه الأمة فی ظل الحکم الجائر التابع کآل سعود، لأن قول *الرسول* یسوغ الرفض والثورة ضد الحاکم الظالم الفاسق الذی تعدی حدود الله، وحکم بغیر ما أنزل الله(هنون، ۲۰۰۸: ۳۳):

«عاد أبولهب
یحمل فوق ظهره آلهة الخشب

يبنى عروش حقده القديم
على عظام الجوع والسغب
وينثر الدماء فى زمزم والحطيم
يحمل فوق ظهره آلهةَ البترول والخشب
ويذبح ابتسامةَ الحجيج
لترسوا البواخر الشقراء فى موانئ الخليج
وتحفظ السلام فى مكة
بالرصاص والهراوَه!
يا كبر الدماء
يا لون إعصار يخط الجرحَ،
فى رمال كربلاء
إغضب، فهذا موسم الطواف بالمآزر الحمراء
واغضب،
فهذا موسم الصلاة فى الدخان
واغضب فهذا موسم الغضب»

(السنيد، ١٩٨٨: ١٧٧-١٨١)

كان جانب الرفض فى الخطاب الحسينى كما أشار إليه شاعرنا، هو التخلص من أيادى الاستعمار والفقر والظلم والقمع ويهدف إلى الإصلاح فى البنية الاجتماعية والسياسية والدينية، ويلتقى هذا الرفض مع هدف الأمام من خروجه وهو طلب الإصلاح فى أمة جده، ويطابق تماما المسار الذى رسمه الإمام لثورته ضد الظلم والانحراف، لذا نجد فى خطاب الشاعر طائفة من التراكيب عبر بها عن الرفض المطلق لكثير من التوجهات ولاسيما فى الجانب السياسى الذى يحدث فى البلاد الإسلامى(الياسرى، ٢٠٠٩: ١٤٣).

كربلاء وولادة التيارات السياسية الغالية(المختار، والخمينى، والصدر)

عاشوراء انعكست على الحركة الشيعية بجميع روافدها وحركة *المختار الثقفى* التى تعدّ أول ثورة شيعية ناجحة تمكنت من الوصول إلى السلطة والثأر من قتلة *الحسين* وأصحابه

عنـد نهـر الخـازر. تعـدّ حركـة المختـار أول حركـة شـيعية مسـلحة مـن أجـل اسـتلام الحكم(الطبری، ۱۹۶۹: ۸۶ وما بعدها).

«سورةُ الكافرون ملحمةُ اللّاءات
فينا، فكلُّنا إصرار
أضحى، وبيننا المختارُ
كلٌّ مستعذب البلاء يمرُّ الضيمُ
فيه.. وصبره مَوّارُ
لن تضيعَ الخطى ففی دربنا
المحفوف بالنزفِ لم تزل آثارُ»

(السنيد، ۱۹۸۶: ۴۵-۴۶)

إن المختارية نجحت فی استقطاب الإيرانيين وتحولهم إلـی الخـط الشـيعی السياسـی والولائی لآل البيت النبوی ويعد ذلک توسعة فی قاعدة الإسلام الاجتماعيـة وفـی حراكهـا الثقافی والفكری والمذهبی، كما لا يفوتنا بأن الإيرانيين هم مـن سـيكونون رواد الحـراک السياسی والمذهبی فی مراحل قادمة مـن تـاريخ الخـط الشيعی(صـديقی، ۲۰۰۸: ۲۰۱). وهذا كلّه مدين أيضا إلى حد كبير لنجاحات *الإمام الخمينی* وأتباعه من العلماء فی تقديم أطروحة عملية عن ثورة عاشوراء فی إنتفاضة الشعب الإيرانی(ظاهری، ۲۰۰۷: ۵۶).

و*لخمينی* خطابٌ بيّن خلاله آليـة الاقتـداء بعاشـوراء ومعطياتهـا أنّ كلمـة كـل يـوم عاشوراء وكل أرض كربلاء، لشعار عظيم أخطـؤوا فهمـه؛ فتصـوّروا معنـاه فـی اسـتمرارية البكاء، وهو بالتأكيد خلاف مضمون نصّه، فماذا صنعت كـربلاء؟ ومـا دور أرضـها فـی يـوم عاشوراء لكی يتحتّم على سائر البقاع أن تقتدی بها؟ إنّ معنـی كـربلاء يكمـن فـی تلـک الأرض التی سار إليها مجموعة من الأفراد ليقفوا بوجه يزيد ودولته الطاغية؛ إنهـم جـابهوا امبراطور زمانهم وضحّوا واستشهدوا دون أن يخضعوا للظلم، وبـذلک انتصـروا علـی يزيـد؛ فعلى الأماكن الأخرى أن تكون بهذا المستوى، وعلى الأيام أيضاً أن يكنّ بمسـتوى مجـد ذلک اليوم.

وعلى شعبنا أن يتصوّر كل يوم كيوم عاشوراء؛ فلابدّ لنا من الوقوف بوجه الظلم، وهـذه كربلاء هنا ولابد من إحياء دورها؛ فهی لا تحدّ بجغرافيا أو تـاريخ، ولـيس دورهـا مقتصـراً

على عناصر محدّدة لا يتجاوز عددهم السبعين شخصاً، بل ذلک کلّه حاضرٌ فی کل مکـان وزمان(الموسوی الخمینی، ١٣٨١: ٥٨):

«غُنيتُ جحفلَ روح الله ملحمةً
سَمَت على کُلِّ ما قالوا وما سَرَدوا
وعفَّروا جبهةَ الدنيا وقد شمخت
فما بريق أمانيها.. وقد زهدوا
لَبّوا حسيناً على أصداء صرخته
کأنهم بجراح الطفِّ قد وِلدوا
لم يشهدوا کربلا لکنهم عبروا
بحراً من النزف فيه کربلا شَهِدوا»

(السنيد، ١٩٨٦: ١٢٢)

ویکون فی اهتمام شاعرنا بمحتوی هذه القصیدة، تشجیع شعبه علی الثورة الولائیـة ضـد الظلم، لاسیما مع انطلاق أوّل شرارة للثورة الإسـلامیة فـی مطلـع الأربعینیـات مـن هـذا القرن؛ أن *الإمام الخمینی* استعاد هیئات العزاء مکانتها الحقیقیة، وعادها شیئاً فشـیئاً إلـی یـد الشـباب الثـوری. وبهـذا اسـتعادت التجمّعـات حیاتهـا ونضـالها فـی مقارعـة للظلـم الداخلی(الاسـتبداد البهلـوی)، باتـت أیضـا تهـتمّ بمواجهـة الظلـم الخـارجی المتمثـل بـالاستکبار العالمی والصهیونیة، مع إقامة العدل والعمل علی إصـلاح الشـخص ومحیطـه، مساعدا فی تحقیق بعض المرامی السیاسیة للحاکم الثوروی *الإمام الخمینی*.

واشتهرت أسرة الصدر بالجهاد والتقوی، حیث یذکر منهم *السید هادی الصدر*، و*السـید حسن الصدر*، و*السید محمد صدرالدین الصدر*، و *السید عبدالحسین شرف الموسـوی* ابـن عم أسرة آل الصدر. ویعتبر هذا المحیط الفکری الأسری أحد أبـرز العوامـل التـی جعلـت *محمدباقر الصدر* مفکرا حسینیا جهادیا لشعب العراق:

«علمتنی یا صدر أن ألجَ المدی
أن أستخفَّ بمن أعدَّ.. وهدَّدا
ورسمت لی فی الرفض دربَ بطولةٍ
وعرفتُ أن لن أستکينَ وأسجُدا

نَم يا حسين العصرِ حسبُک أننا
باقون ننهلُ من يديک الموردا»

(السنيد، ١٩٨٦: ٨٣-٨٤)

كما أشار شاعرنا فى هذه القصيدة، أن *الصدر* هو النموذج المثالى لطريق *الحسين* ولأدب ولحركة المقاومة الذى لا يعرف العتاب والعويل، ولا التنصل والتخلى ولا الإنهيار أمام أصغر هبة ريح.

الانتفاضة

مازال هناک ظلم فى زمن ما وفى أرض ما، ولهذا يجب أن تتجدد عاشوراء بقيمها وتضحياتها، لتأخذ على يد الظالم وتوقفه عند حده وتجدد روح الثورة والتمرد على الظلم فى نفوس المظلومين. إن الإنتفاضة هى أول تحدٍ شعبى جماهيرى عام للنظام الديكتاتورى البائد، التى نقلت وقود الثورة وعملية التغيير من السجون المظلمة إلى الشارع وأمام مرأى ومسمع الرأى العام، تعبئة مختلف القوى الشعبية، لشنّ الهجمات المسلحة، وخوض حرب الشوارع الاستنزافية والقيام بالعِصيان المدنى(الشيوخ، ٢٠١٣: ٧٨). فهى إذن حولت المواجهة مع النظام من العمل الحزبى النخبوى إلى العمل الجماهيرى، ولذلک فإنها المفصل فى عملية التحدى والتغيير:

«لقد قتلوا اليوم بعض النساء..
وهذى بنادقهم لاتزال..
معلقةً فى الجدار..
تحوک لنا موتنا.. والدّمار..
سجن أنصار اليومَ،
قد أضربوا فيه.. تسعون معتقلاً..
رفعوا صوَرَ الصَّدر،
واستُشهدوا..
ونحن هنا فى أبى غريب،
نكتب نشرتنا ونوزّعها فى الظلام..

وندفن تحت أسِرَّتنا
صورةً للإمام..
قُطع اليومَ معبرُ صبرا
بقصف جبان..
وطفلٌ بها اختنق الآن إثرَ الدُّخان..
ولعبته لم تزل فى الطريق
ومدرسةُ القدس فى الفاكهانىِّ
قد شبَّ فيها الحريق..
ونحن لقد أصبح اليومَ مجموعنا
ربعَ مليون جرحٍ وأكثر..
وما زال فينا..
حسينٌ،
وجرحٌ،
والله أكبر
قُتِلَت فى المعارك مريم دَهينى
وكانت كَطُهر الندى
قُتِلَت فى الزنازين بنتُ الهدى..
أصبح القصف يشتدُّ
«قنبلة» سقطت..
وأنا..»

(السنيد، ١٩٨٦: ٧١-٧٣)

إن اللسان ليعجز والقلم ليجف عند الحديث عن أهوال المجزرة التى ارتكبها النظام البعثى بحق المشاركين فى الإنتفاضة، فعلى الرغم من أنها كانت حركة شعبية عفوية وسلمية لا تحمل أى نوع من السلاح لا النارى ولا الأبيض، إلا أن النظام البائد واجهها بكل أنواع السلاح الثقيل المدعوم بالطائرات التى ظلت تحلق فى السماء فوق رؤوس الناس كما جاءنا الشاعر فى قصيدته «الأطفال لا تعرف الموت»:

«مرت الطائرة الحمقاءُ،
تهاوى السقفُ، وانهدَّ جدار
والدمُ امتدَّ، وأشلاء توارت فى الغبار
وبقايا دميةٍ ضاعت،
وكفٌّ، وسوار
فالدنيا وما فيها دخانٌ، وحريق
وتوارى فى رماد الموت،
لا شىء سوى الصمتِ،
وعكّازٍ ونظاراته فوق الطريق
والمذياع فى بغدادَ
صوت يتقيّا الخوفَ،
موسيقى، والفاظا كبيرة،
وبيانات عن الموت بساحات الشَرف،
وأناشيد عن النصر، أكرم القائد طياراً،
وأعطاه وسام!»

(نفس المصدر:۱۶۴-۱۶۹)

إنها دماء تراق على الأرض فى مواجهة الشعب والديكتاتور، لأنه يبنى سقفا سياسيا فوق رؤوس شعب العراق، لا يسمح لأحد تجاوزه، فتقتله إذا أصر على تجاوز السقف السياسى المحدد للشعب(مک داول، ۱۳۸۳: ۵۳۰) كما أشار شاعرنا إليه فى قصيدته *رجب الرفض*:

«لم تَرُعنا مشانقٌ فى ثناياها
أباحت رقابها الأطهار
جرحنا لن يموتَ فهو إمتدادٌ
لحسينٍ، يخطه الأحرارُ
لم تمُت أنت يا شهيدُ، ولن يُخنَقَ
شعبٌ، وصوته هدّارُ

يتهادى بسمعه صوت عاشوراءَ
والحقُّ قطبه والمدارُ»

(السنيد، ١٩٨٦: ٤٦-٤٧)

ولولا تلک التضحيات الجسام التی قدمها العراقيون علـی طريـق ذکـری واقعـة الطـف العظيمة، لما شاهدنا اليوم کل هذا الزحف المليونی إلـی مرقـد سيدالشـهداء فـی کـربلاء المقدسة. لا نری تحول الحياة والعزة والکرامة والديمقراطية إلـی نـاموس اجتمـاعی وإلـی الناس لا دخل لهم فی شأنها.

الإستشهاد والخلود الحسينی

قضية *الحسين* رسمت طريقاً جريئا للرافضين ومن يسلک آثارها يحطـم قيـود البـؤس والطغاة(عنوز، ٢٠١٣: ٢٦). لأن *الحسين* يعد الممثل الطبيعی للإتجاه الجهادی الإصلاحی، کان صوت جمهور المسلمين المفجوع ولقد شحنت ثورتـه الفکـر السياسـی فـی الإسـلام بنفس جديد من التحدی والتضحية والإستشهاد مـن أجـل المبدأ(صـدّيقی، ٢٠١٢: ٤٤) کما جاءنا الشاعر فی قصيدته «أشياء عن الإنسان»:

«لکنَّ موت أمةِ الجراح مستحيل
لأنها تنظر من فواصل القرآن
لن يسمع العالمُ يوماً صوتنا المهان،
إلا إذا لعلع من فوهةِ بندقيَّة
لا يموت الفکرُ مذبوحاً،
علی شفرة سيف
ربما يشرب من أوادجه الحمرا شقیٌّ
غير أن الألم المدفونَ،
ينمو کالشجر
ثم يهتز کدولاب القدر
لتطيح اللات، والعزّی،
وأکوام الحجر

نحن لا توجعنا ضربة جلادٍ غبيَّة
إنما نصغى إذا ما صرخ الرشاشُ،
فى قبضة ثائر..
إذا ما حمل الإنسانُ،
فوق الكفِّ عمرُه
نحن نصغى للذى.. لا يسكن قبرُه!
والذى يحيى، ويقتاتُ على الجرحِ،
ويحيى ألف مرَّا!»

(السنيد، ۱۹۸۸: ۱۳۶-۱۴۵)

كما أشار *السنيد* فى قصيدته أن *الحسين* حاضر فى كل يوم، وله أثر فى فهم الأوضاع القائمة وفى تقدير الإتجاهات والتطورات المقبلة، لأنّه موضوع حى يقوم بدور بليغ فى الثقافة والتكوين الاجتماعى والخلقى لحركات شعب النضال، وصرخة بوجه كل ظالم، ونداء حرية وكرامة لكل انسان(الدورى، ۲۰۰۵: ۱۵).

شاعرنا إعتقد؛ إن *صدام حسين* هو الذى أغلق كل أبواب التغيير بوجه الثوار الحسينى ما عدا باب واحد هو باب الجهاد، فلم يعد الكلام ينفع كما لم تعد المعارضة السياسية والدبلوماسية تنفع(زارع بِرُمى، ۱۳۸۹: ۱۱۸). بل تنفع لغة السلاح ولغة الوحى كلاهما أساس نهضة *الحسين* ونهضة شعب العراق:

«أقرأ فى كتابه المخضوبِ كلمتين
أقرأ: قرآن وبندقية
فأحمل الهوية»

(السنيد، ۱۹۸۶: ۱۷۹)

لأن *الحسين* عاش مع أجواء الشهادة، ودربه وأخلاقه بقيا بعد استشهاده خالدين ومفتوحين أمام الآخرين(التميمى، ۲۰۱۲: ۱۹). يعلمنا *الحسين* أن التجربة الثورية هى تجربة حياتية عامرة بالحب والتضحية، وأن الحب الحقيقى هو الاستعداد الشامل للتضحية والفدائى هو محب ومتصوف كبير يعيش متخلياً سخيا عن ذاته ليحل فى الثورة وتحل فيه(السيد جاسم، ۱۹۹۵: ۱۶۷):

«أن يكون الفداءُ بعضَ عطايانا
وقد بيع للاله الفداءُ
فاشهدى يا سماء أنا سنبقى
وسيبقى طريقنا يا سماءُ
وسنبقى مادام يصرخُ فى الدنيا
حسينٌ تضمه كربلاءُ»

(السنيد، ١٩٨٦: ١٣٥-١٣٦)

هو يرى أن أبطال عصره ماضين نحو الشهادة فى ثبات ويقين واشتياق، واهبين بموتهم حياة للآخرين، فى عيونهم عناد وإصرار على المضى كأنما هو مستمد من كربلاء. يقول مخاطباً كل شهداء العصر:

«لحكاياک وجوه كوجوه الأنبياء
ولعنادک عناد قادم من كربلاء»

(نفس المصدر: ١٢٣)

الحسين هو عنوان الكرامة واليقظة والحماسة

إن كرامة الإنسان تتجلى فى ثلاث قيم أساسية واستراتيجية: الحرية والمساواة والشراكة، هى اليوم محور الديمقراطية التى يكتب ويتحدث عنها ويبشر بها العالم(بدرالدين، ١٩٨٦: ٣٦)، وعاشوراء جوهر الديمقراطية لأن *الحسين* كما جاء، استهدف بثورته الجهادية والإصلاحية فى العاشر من المحرم عام ٦١ للهجرة، إعادة الكرامة التى سلبتها السلطة الغاشمة من الإنسان والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(سياسياً ودينيا) أولاً وقبل أى شئ آخر(الياسرى، ٢٠٠٩: ٨٣-٨٢).

ينشد *السنيد* فى قصيدته «أشياء مثل الدم»، أن *الحسين* هو الذى بذل عمره وكل ما فى وسعه من أجل نجاة الأمة وتنبيهها إلى الخطر العظيم الذى عاشته فى ظل سلطة سياسية منحرفة وظالمة. لأن البيعة بالإكراه لحاكم ظالم دليل صارخ على أن الأمة بلا كرامة، وإن أمة لا تمتلک حق الإختيار لهى أمة ميتة:

«على جرح الحقيقة ينثر العمرا

ویسقیها علی یبسٍ،
عرفتک حین کان الناس فی إغفاءةِ الخدر
رأیتک تقرأ الآهات،
کأنک تستغیث بألف وجهٍ قد من حجرِ
وکنّا صوت نادبةٍ
وغطی قسوة العثرِ
بصبر النخل، وأو بجراح منتصر
ولا رکعت لنصل القاتل القذر
ولا خشعت بدرب الخوف»

(السنید، ۱۹۸۸: ۹۹-۱۰۱).

فمن أجل هذا یلیق *بالحسین* أن یکون عنوان کرامة الأمة والدفاع عن العقیدة فعلینا أن نتعلم منه کیف نصون حریتنا وکیف نحافظ علی خیاراتنا بصدور عاریة، فلا نعطی البیعة لکل من هب ودب(الیاسری، ۲۰۰۹: ۴۱-۴۲). کما جاء فی قصیدته «هکذا تکلمت» أن *الحسین* مثل یضرب لمن یختار الموت العزیز علی العیش الذلیل؛ ونری أن خطاب الشاعر هنا خطاب ثورة، وخطاب معرکة وخطاب البرهان القاطع فلا غرابة أن یمثل البعد الحماسی والعقلی جانباً کبیرا من بنیة هذا الخطاب سواء أکان ذلک فیما قاله أم فیما تمثل به، ذلک أن خطاب الحرب والقتال مع الإستبداد وما ینصرف إلیه من دلالات تمثل الدفاع عن الهدف وإقناع السامع بما یقوله المنشئ، کل ذلک یتطلب توافر الخطاب علی جانب حماسی ومنطقی واستیقاظی یزداد بروز هذه الأبعاد خلال الشعر، لأن مثل هذا المقام لا یجوز فیه إظهار الضعف والإستسلام فی مخاطبة العدو فیجعله طامعاً فی المزید، ومن هنا کان من الواجب إظهار الحماس والقوة والشجاعة فی الخطاب والابتعاد عن مبدأ الخضوع(نفس المصدر: ۱۴۱-۱۴۲):

«قلت للشاعر:
هاتیکَ الجیاد
ملء عینیها تحدٍّ وعناد
والجیاد،

حافرٌ يقرع فى الصخرِ
ولا يغفو بواد!
قلت للفلاح: يا هذا،
إذا ما التهمت حقلَكَ،
أسرابُ الجراد
كيف تغنيكَ مواويلُ الحصاد؟!
قلت للثائر: لا توجد بين السيف والذلّة
ساحات حياد
أنت إن لم تحمل الجمر لظىً،
تحمله إذ يبردُ،
أشلاءَ رماد!»

(السنيد، ١٩٩١: ١٣١-١٣٣)

إن كربلاء مدرسة خالدة لا توصد أبوابها، وإن صفوفها مفتحة لكل من يريد أن يحضرها ليتعلم كيف يحيا بكرامة، وكيف يعيش مالكاً خياراته. ولذلك علينا أن نحتفظ بعاشوراء كقضية استراتيجية نهتم بها كحركة وعى نرتب عليه أثراً مباشرا على حياتنا اليومية، وعلى طريقة تفكيرنا(مجموعة من الباحثين، ٢٠١١: ١٤ والجابرى، ١٩٩٩: ١٤). حين لم يكن هدفا للأنظمة المستبدة سوى احتكار السلطة، والاستيلاء على مقدرات الشعب(الشيوخ، ٢٠١٣: ١٥٤)، كما أشار إليه الشاعر فى قصيدته «أشياء عن الإنسان»:

«أصيح: تعالوا يا أهلى
هذا الزمن الصخرىُّ،
تفنَّن فى قتلى
لحظاتى تغرق فى الوحل
أيامى تغرق فى الوحل
أصيح، وأصرخ فى السرِّ
لا ثالث فى لغةِ النصرِ
إما أن نَصبح نحرَ حسينٍ،

أو نغدو سیفَ الشمرِ!»

(السنید، ۱۹۸۸: ۱۳۱-۱۳۳)

طریقة الحسین وطریقة الثوار هی الطریقة الحمراء

ینشد حس السنید فی القصیدة «أشیاء مثل الدم»، من *الحسین* الذی استقبل واقعات البلاء، مفردات مریرة من العناء والمکابدة المصحوبة بنزیف الدم، وقد قصد ساحة المواجهة بکل مخاطرها لتکون له ولأسرته ولخاصة صحابته منها تلک الحصة البالغة من التنکیل والبطش؛ والذی تلاحقت فصوله الدموية فی واقعة عاشوراء وما بعدها وفیما لم یشهد الإنسان مثل تلک الحالة النادرة فی وفود *الحسین* علی ساحة الهلاک المحقق مع أهله(التمیمی، ۲۰۱۲: ۶۸-۶۹)، دون أن یخضعوا ویستسلموا أو یتذمّروا من شیء(مستوفی، ۱۳۴۱: ۲۸۸):

«وأخبرنی بأن الطفَّ، ما زالت ترضُّ،
علی ثراه الأضلع الحمرا
وما زالت ملطخةً هناک الأذرع البترا
وما زال الرضیعُ،
یذوب من عطشٍ فتمسح وجهه الحورا
ومازال الحدید یئنُ،
ویثقل مشیةَ الأسری
ویا نصلاً یمزقنی،
ویطلبُ من بقایا جثتی الأجرا
ترفق، لستُ مجنوناً،
ومن أدری؟
من الأوداجِ حین تعانق السکینةٌ النحرا
ومن أدری؟..
ولا تغضب
إذا ما أطفأوا جمرَ السکائرِ فی العیون،

ومزقوا الأجساد
ويغمرُ وجهه بدمِ»

(السنيد، ١٩٨٨: ٩٧-١٠٨)

توجد علاقة بين قضية *الحسين* واللون الأحمر، وربما كانت أكثر الصور الحسية تواجدا فى المشهد الحسينى هى ما صُبغت بالحمرة، والشاعر حرص على أن يقدم صورته الحسية ملونة من خلال دلالة الأجساد المبتور المصبوغ بالدم والأصبع المقطوع، ليومىء إلى عالم الخنوع شارحا قصة الشهادة والإسارة التى يقدم من أجلها النفيس. ثم ختم صوره الحسية بألوان العذاب التى تكلمت بفم الحقيقة عن تأثير *الحسين* فى الآخر(عنوز، ٢٠١٣: ٨٠).

فقد توحد الشاعر مع قضية عاشوراء ومع العراق، وانتهى إلى أن الدماء التى ضرج بها *الحسين*، إنما ضرج بها العراق بأكمله، لذا يستحضر الشاعر أبطال عاشوراء، فى شعره رمزاً للتضحية وللصبر الطويل صبر المواطن العربى على مرارة الظلم والطغيان، بينما يتخذهم رمزاً لمعاناته وآلامه الشخصية فى طريق القيام والثورة على الإستبداد فى العراق. فنرى الصور الحسية خير معبر بدلالاتها عن نقل واقع إذ يبين الشاعر الرفض موقفه أمام الواقع، فلذلک لوّن الشاعر بصوره الحسية العراق باللون الأحمر الألم، لأنه كان المكان الذى جمع بين وقفة الخير والصلاح المتمثّلة *بالحسين* وآله وصحبه، وبين لمة الكفر أعوان الطاغية، وبذلک حقق الشاعر نموّاً فكريا لصور أضاءت مضمون نصه.

نتيجة البحث

النهضة الحسينية لبست الثوب الشعرى، وعبّرت بفم الحقيقة عن قضية *الحسين* ومعانيها ومضامينها وأهدافها السامية.

ينشد الشاعر الحسينى عن *الحسين* الذى يهزمه الطاغوت مادياً، فينتصر *الحسين* عليه معنويا، ويهزمه بالسلاح فينتصر *الحسين* عليه بالكلمة، ويهزمه فى زمن معين فينتصر الإمام عليه فى كل زمن، ويهزمه فى المكان المحدد فينتصر عليه فى كل مكان، ويهزمه بالباطل فينتصر عليه بالحق، ويهزمه بالجهل فينتصر عليه بالمعرفة، ويهزمه بالعنف، والتضليل، والعبودية، وبتكميم الأفواه فينتصر عليه بالرفق، والحقيقة، وبالحرية، وبحرية التعبير، ويهزمه بالنفاق، وبالعمى، فينتصر عليه بالصدق، وبالبصيرة النافذة، ويهزمه

بالموت، وبالجمود فينتصر عليه بالحياة، وبالثورة، وأخيراً يهزمه بالجاهلية فينتصر عليه بالإنسانية، والإسلام، والحضارة.

أما *//الحسين* فلم يكن هدفه السلطة من أجل السلطة، أبداً وإنما إستهدف السلطة الظالمة من أجل التغيير نحو الأفضل والأحسن، وشاعرنا أيضاً إستدعى شخصية *//الحسين* وقضية عاشوراء لتحقيق أهدافه منها ١)تحريض الشعب لإسقاط النظام وإسقاط شرعية السلطة البعثية التى نزت على الحكومة بغير مشورة ولا رضى من الشعب؛ ٢)إبطال نظرية الحاكمية المطلقة للسلطة، والتى تلغى إرادة الأمة؛ ٣)إثارة حرية الإختيار، لإعتقاده الجازم وإيمانه الراسخ بحق العقل وحق الضمير فى تعيين المصير؛ ٤) تفسير مفهوم الحياة والموت بطريقة أخرى، تختلف عما يفهمه الناس؛ ٥) شرح مفهوم البيعة لشعبه، أو ما يسمى اليوم بصوت الناخب الذى يدلى به فى صندوق الإقتراع، كمسؤولية شرعية وتاريخية، لا ينبغى لأحد أن يعطيها لكل من هب ودب، فقد تنتهى به إلى النار بعد أن تصادر حريته وتقضى على كرامته وتفسد المجتمع بنظام سياسى فاسد؛ و٦)كشف جرائم النظام السياسى السفاك فى قمع وقتل المواطنين، الذين خرجوا إلى الشوارع مجردين من أى سلاح إلا سلاح الكلمة مطالبين بالتغيير والإصلاح لإعادة الكرامة إلى الشعوب المقهورة.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

إبن خلدون، عبدالرحمن بن محمد. ٢٠٠٧م، **مقدمة ابن خلدون**، اعتنى به هيثم جمعة هلال، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة المعارف.

أمين، أحمد. ١٩٣٦م، **ضحى الإسلام**، الطبعة السابعة، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

بدر الدين، إكرام. ١٩٨٦م، **الديمقراطية الليبرالية ونماذجها التطبيقية**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الجوهرة للطباعة والنشر والتوزيع.

التميمى، مهدى حسين. ٢٠١٢م، **الإمام الحسين بن على أنموذج الصبر وشارة الفداء دراسة ومقارنة**، الطبعة الأولى، كربلاء: وحدة الدراسات التخصصية فى الإمام الحسين فى قسم الشؤون الفكرية والثقافية فى العتبة الحسينية المقدسة.

السنيد، حسن[جواد جميل]. ١٩٨٦م، **صدى الرفض والمشنقة**، الطبعة الأولى، طهران: معاونية العلاقات الدولية فى منظمة الاعلام الاسلامى.

السنيد، حسن[جواد جميل]. ١٩٨٨م، **أشياء حذفتها الرقابة**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع.

السنيد، حسن[جواد جميل]. ١٩٩١م، **للثوار فقط**، الطبعة الأولى، بيروت: دار الفرات للنشر والتوزيع.

السيد جاسم، عزيز. ١٩٩٥م، **دراسات نقدية فى الأدب الحديث**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

مطهرى، مرتضى. ١٣٨١ش، **حماسه حسينى**، چاپ چهل‌ام، تهران: انتشارات صدرا.

مک داول، ديويد. ١٣٨٣ش، **تاريخ معاصر كرد**، ترجمه ابراهيم يونسى، چاپ دوم، تهران: نشر پانيذ.

المقالات

صدّيقى، محمد الناصر. ٢٠١٢م، «**بواكير الفكر السياسى عند المنبثقات الشيعية: من الاصطفاف العلوى إلى نشأة المجموعات الغالية(القسم١)**»، دفاتر السياسة والقانون، العدد٦، صص٣٨-٤٧.